198624

الموسيقى العربية

في نموها وتطورها

تاريخًا.. وأدبًا.. وبحثًا

الدكتور صالح المهدي (زرياب)

دار الشرق العربي
لبنان - بيروت ص.ب 11/6918
سورية - حلب ص.ب 415

بسم الله الرحمن الرحيم

طبعة جديدة منقحة
1424 هـ - 2003 م

جميع الحقوق محفوظة للناشر

دار الشرق العربي

سوريا - حلب هاتف 2211620 - 2211621 - 2211622
فاكس 2211623 21 00963 ص.ب 415

بيروت - لبنان - تلفاكس 791668 1 00961

ص.ب 6918/ 11 الرمز البريدي 11072230

www.afach.aleppodir.com
E.mail : afachco1@scs-net.org

مقدّمة

بسم الله الرحمن الرحيم

لقد كان المؤتمر الأول للموسيقى العربية الذي انعقد بالقاهرة سنة 1932 منطلقاً لبعث روح جديدة في الشعب العربي وخاصة في الشباب المثقف الذي اطلع على مدى اهتمام الحكومات الأوروبية بالموسيقى وبالقائمين عليها ونتج عن ذلك تأسيس جمعية الموسيقى الأندلسية بالمغرب والجمعية الموصلية بالجزائر والرشيدية بتونس ومعهد الفنون الجميلة ببغداد والمعاهد الموسيقية بكل من دمشق وبيروت وحلب علاوة عن معهد الموسيقى الشرقية المؤسس قبل المؤتمر المذكور بمصر.

وبعد أن تخلصت الأقطار العربية تباعاً من ربقة الاستعمار قامت أغلب الحكومات بحركات مباركة في العناية بالموسيقى بوجه عام والموسيقى العربية بوجه خاص آلت إلى اتفاقها جميعاً على تأسيس المجمع العربي للموسيقى في نطاق جامعة الدول العربية وهكذا عم تأسيس المعاهد الموسيقية في أغلب البلاد العربية وتوسعت حركة التربية الموسيقية وتزايد عدد الفنانين المثقفين وأنشئت الفرق الموسيقية الرسمية في نطاق الإذاعات وغيرها وكذلك الفرق الخاصة من هاوية ومحترفة وبعثت حركة مباركة في الانتاج والبحث.

وأصبح الفنان العربي في حاجة ملحة للتأكد من أصالته الفنية عبر التاريخ القديم الذي كانت فيه الثقافة العربية متقدمة أشواطاً بعيدة عن الثقافات المعاصرة لها في ميدان الموسيقى بالذات وكذلك عبر التاريخ القريب في كل منطقة من الوطن ليكبر المجهود الذي قام به فنانونا للحفاظ على التراث مع إنمائه في فترة

كانت فيها تبتعد عن أصالتها التي كانت رصيدها الوحيد في انطلاقها للكفاح التحريري.

ولهذا السبب رأيت من الواجب الملح تأليف هذا الكتاب الذي لخصت فيه ما أتت به الكتب القديمة من أخبار ومعلومات وما تعرفت عليه من مطالعاتي واتصالاتي الشخصية بأبرز الفنانين العرب من مختلف الأقطار العربية مقدماً ذلك في فصول مختصرة تتناول التاريخ والطرائف والمعلومات يمكن تناولها في معاهد التعليم الموسيقي للفائدة التاريخية والعلمية وليشعر الطلاب الذين سيصبحون فناني المستقبل بالوحدة الفنية الشاملة بين كل الأقطار العربية. ويجد فيها الفنان الهاوي أو المحترف فائدة في مطالعاته يتعرف من خلالها على مدارس مختلف العصور والأقطار العربية وتكون له الرصيد الذي يحثه على توخي الأصالة في انتاجه وعلى طرق أبواب البحث العلمي في الموسيقى العربية.

تمثال صغير لناقرة دف قرطاجة من متحف باردو بتونس

أصول الموسيقى

لايمكن لنا أن نضبط تاريخاً معيناً نرجع إليه بدء الموسيقى في العالم، فقد خلقت مع خلقه، وهي من أصوات الرياح، والأمواج، والحيوانات التي تبديها عندما تبعث في الحياة وتشم نسيم الوجود- وللموسيقى ناحية أخرى هي الإيقاع أو الوزن الذي يشعر به الحيوان والإنسان من الفترات المتساوية المضبوطة التي تتوجد بين دقات قلبه ويشعر به أيضاً عند كل حركة من حركاته الطبيعية المتكررة كمشيه مثلا، فلو نتوجه بالعناية إلى سماع وقع رجلينا برهة من الزمن ونحن نمشي لوجدنا أنفسنا نترنم بكلام أو بلحن موزونين على هذا الوقع، ففي الإيقاع اشترك الشعر والغناء وصارا صنوين هائمين في بحر الخيال ـ وعلى هذا الأساس ابتكر العرب قديماً الحداء، وهو الغناء الذي يعين الابل على قطع المراحل البعيدة بدون أن تشعر بتعب.

ثم تطور الإنسان وأخذ يبتكر الآلات الموسيقية من الحجارة واللوح والجلد للاستعانة على الايقاع ومن قصب لاداء الأصوات الممتدة بالنفخ، ثم بمناسبة تعاطيه للحروب بالنبل تفطن إلى امكانية استعمال الأوتار في الموسيقى فأدخلها مع جذبها بالأصابع أولاً ثم مع الضرب عليها بقطعة من الخشب أو بريش الطيور ومن ذلك آلات ـ العود والقانون والهارب... واستعملها أيضاً باحتكاكها مع بعضها ومن ذلك أتى الرباب بأنواعه إلى أن تطور الآن إلى الكمنجة بجميع أصنافها.

والموسيقى هي معيار تقدم الأمم في الحضارة، فقد كانت معجزة النبي داود عليه السلام وقال فيها نابليون بونابارت: ليس هناك ما يعادل تأثيرها على الإحساس ـ فهي ربة التهذيب والذوق والجمال ـ وقال فيها الإمام الغزالي: «من لم يحركه الربيع وأزهاره والعود وأوتاره فهو فاسد المزاج ليس له علاج» وتعرض لها (أرسطوا) بقوله: «الموسيقى أول مهذب للخلق» ولهذا فإنه من

الضروري تعليمها للنشىء.

وقد كانت موجودة عند أغلب الحضارات القديمة. ومتاحف العالم مملوءة بما يؤيد ذلك فقد عرفت الهارب في الموسيقى السمرية واستعملت عند جنود الاشوريين، وربطها الهنود بمعتقداتهم وتقدمت عند الفرس ونهضت عند المصريين القدامى وقد أمكن لصديقنا العلامة الألماني (هيكمن) أن يعيد الأصوات المطربة القديمة إلى الوجود مستعيناً بنسب أوتار الآلات التي وجدها منحوتة في الحجارة ومتاحفنا التونسية حافلة بالصور على الفسيفساء خصوصاً، بما يؤكد أن الموسيقى كانت لها مكانة مرموقة في عهدنا القديم.

وأتى العرب من الجاهلية بموسيقاهم التي جمعت بين البساطة والطرافة والتأثير حتّى على الحيوان.

* * *

الموسيقَى العربية في عهدنا الأول

كانت الخنساء شاعرة الرثاء تغنى مراثيها، وتغني الأعشي ميمون بن قيس متغزلاً في (هريره) احدى مغنيات الحيرة في أيام النعمان، وكان للحادي دور أساسي في رحلات التجار إذ على نغماته تقطع الابل المفاوز غير شاعرة بثقل حمولتها.

وعندما جاء الإسلام أقر الذوق السليم والصوت الحسن، ومن أبرز الشواهد على ذلك قوله تعالى: ﴿**إن أنكر الأصوات لصوت الحمير**﴾ وما روي عن عائشة رضي الله عنها: أن أبا بكر رضي الله عنه دخل عليها في أيام منَى وعندها جاريتان تدففان وتضربان، والنبي صلى الله عليه وسلم متغش بثوبه، فانتهزهما أبـو بكر فكشف النبي عن وجهه وقال: دعهما يا أبا بكر فإنها أيام عيد.

وجاء في سنن الحافظ ابن ماجة رضي الله عنه: باب الغناء والعزف ص 711 رقم 1897 عن الربيع بنت معوذ، قالت: «دخل على رسول الله ﷺ صبيحة عرسي وعندى جاريتان تتغنيا وتندبان آبائي الذين قتلوا يوم بدر وتقولان، فيما تقولان، وفينا نبي يعلم مافي غد. فقال: اماهذا فلا تقولوه، مايعلم مافي غدٍ إلا الله».

رقم 1818 ـ عن أم المؤمنين السيدة عائشة رضي الله عنها قالت: دخل علي أبو بكر، وعندي جاريتان من جواري الأنصار، تغنيان بما تقاولت به الأنصار في يوم بُعاث قالت وليستا بمغنيتين، قال أبو بكراً بمزمور الشيطان في بيت النبي ﷺ، وذلك في يوم عيد الفطر، فقال النبي ﷺ يا أبا بكر إن لكل قوم عيد وهذا عيدنا.

رقم 1899 ـ عن أنس بن مالك رضي الله عنه، إن النبي ﷺ مر ببعض المدينة، فإذا هو بجوار بضربن بدفوفهن ويتغنين ويقلن:

نحن جوارٍ من بني النجار يا حبذا محمد من جار

فقال النبي ﷺ: «الله يعلم إني لأحبكن».

1900 عن ابن عباس رضي الله عنه قال: أنكحت عائشة ذات قرابة لها من الأنصار فجاء رسول الله ﷺ فقال: «أهديتم الفتاة» قالوا: نعم. قال: «أرسلتم معها من يغني». قالت: لا، فقال رسول الله ﷺ «إن الأنصار فيهم غزل» فلو بعثتم معها من يقول «أتيناكم أتيناكم، فحيانا وحياكم».

وكذلك ما رواه الإمام البخاري عن سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه من كونه خرج ذات ليلة مع رسول الله ﷺ وعلى آله وسلم ومعهما سيدنا أبو بكر رضي الله عنه فإذا رجل يصلي في المسجد فقام رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم يستمع قراءته وقال فيه «من سره أن يقرأ القرآن كما أنزل فليقرأه على قراءة ابن أم عبد» ثم جلس الرجل يدعو فجعل الرسول ﷺ يقول له سل تعطه فقال سيدنا عمر «فقلت والله لأغدون إليه فلأبشرنه» قال فغدوت إليه لأبشره فوجدت أبا بكر قد سبقني فبشره فوالله ما سابقته إلى خير قط إلا سبقني إليه. وابن أم عبد هو سيدنا عبد الله بن مسعود رضي الله عنه وقد اشتهر بجمال الصوت.

وفي مناسبة أخرى قال سيدنا عبد الله بن مسعود رضي الله عنه «قال لي النبي ﷺ اقرأ علي قلت يا رسول الله اقرأ عليك وعليك نزل»؟ قال نعم فقرأت سورة النساء حتّى أتيت إلى هذه الآية (فكيف إذ جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً) قال حسبك الآن فالتفت إليه فإذا عيناه تذرفان.

واشتهر أيضاً من الصحابة بجمال الصوت في تلاوة القرآن الكريم سيدنا أبو موسَى الأشعري رضي الله عنه وقد قال له رسول الله ﷺ على (رواية الإمام البخاري) يا أبا موسَى لقد أوتيت مزماراً من مزامير آل داود.

كما اشتهر من الصحابة سيدنا بلال الحبشي رضي الله عنه بحسن الصوت وقد اختاره ﷺ ليكون أول مؤذن في الإسلام.

وفي ذلك العصر أهدى المقوقس جرجير بن متى حاكم مصر جاريتين للنبي صلى الله عليه وسلم فتزوج احداهما وهي (مارية) وأهدى الثانية لسيدنا حسان بن ثابت رضي الله عنه واسمها (سيرين) فأصبحت مغنية مشهورة. ارتكزت عليها المدرسة الموسيقية وتتلمذ عليها جهابذة الفن.

وتناول موضوع جواز سماع الآلات والنغمات المطربات الإمام الفاضل الجليل الشيخ عبد الغني النابلسي رحمه الله في كتابه الذي عنوان «إيضاح الدلالات في سماع الآلات» وقد افتتحه بما يأتي:

الحمد لله الذي شرح لعباده الأحكام، وأبان لهم الفرق بين الحلال والحرام، وجعل سماع الحق فرضاً على الخاص منهم والعام، وسماع الباطل حراماً عليهم من جملة الآثام، والصلاة والسلام على سيدنا محمد ناصر دين الإسلام، وعلى آله وأصحابه البررة الكرام.. وجاء فيه قول الرسول عليه الصلاة والسلام: «استماع الملاهي معصية والجلوس عليها فسق والتلذذ بها كفر بالنعمة» وأكد أن ذلك مرتبط بالملاهي فإذا لم يكن فيه لهو فلا يحرم ولو كانت حرمته من حيث ذاته وصورته المخصوصة ومن حيث مايصدر عن آلات الموسيقى من الأصوات المطربة لكان كل صوت مطرب حراماً وهو باطل لأن أصوات الطيور والشحارير المطربة ليست بحرام إجماعاً ـ وهكذا كان الافتاء بحرمة الآلات المطربات بشرط التقيد بالتلهي وهو الإعراض عن الطاعات ونسيان الفروض والواجبات والاشتغال بالمحرمات والمكروهات كسماعها على الخمر والزنا ـ فإذا انتفى هذا الشرط انتفت الحرمية.

قال رجل لسيدنا الحسن رضي الله عنه ماتقول في الغناء قال: «نعم الشيء الغناء يوصل به الرحم وينفس به عن المكروب ويفعل المعروف» وقال عبد الله بن عوف، أتيت ابن عمر رضي الله عنهما وهو يتغنى بالركبانية فسمعته يقول شعراً: